



إبراهيم الحيدري * : الهيمنة الأبوية الذكورية في المجتمع والسلطة

النظام الأبوي البطريكي

يعود مصطلح بطريكي Patriarchat, Patriarchy في أصوله الى اللغة اليونانية ويعني "حكم الأب"، أي هيمنته على العائلة والتسلط عليها بحيث يكون القرار بيد الذكر "البطريك" فقط باعتباره رب البيت ورئيس القبيلة. كما استعمل المصطلح بمعنى ديني أيضا حيث سمي "القديس" Pater "أبانا" في الكنيسة الارثوذكسية فيما بعد.

ويشكل النظام الأبوي-البطريكي بنية اجتماعية وسيكولوجية متميزة ومتجذرة في الذاكرة الجمعية تطبع العائلة والقبيلة والسلطة والمجتمع في العالم العربي وتكون علاقة هرمية تراتبية تقوم على التسلط والخضوع اللاعقلاني التي تتعارض مع قيم الحداثة والمجتمع المدني واحترام حقوق الانسان نتجت عن شروط وظروف تاريخية واجتماعية واقتصادية وعبر سلسلة من المراحل التاريخية والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية المترابطة فيما بينها حيث ترتبط كل مرحلة منها بمرحلة تسبقها حتى تصل الى مرحلة النظام البطريكي الحديث الذي هو نمط معين من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي السابق على الرأسمالية الذي يختلف في بناء الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عن بنية النظام العربي البطريكي الذي اتخذ نوعا متميزا باعتباره مجتمعا تقليديا يقابل المجتمع الحديث الذي يتصف بالتقدم العلمي والتقني الذي من خصائصه قابليته على مقاومة التغير لبنيته الأصلية منذ العصر الوسيط حتى الآن وقابليته على الاستمرار للحفاظ على قيمه التقليدية كالانتماء الى القبيلة والطائفة والمنطقة وارتباطه بالبيئة الصحراوية التي افرزت نظاما ابويا بطريكيًا ذكوريا سيطر على المنطقة العربية قرونا عديدة وما يزال.



أوراق سوسيولوجية

وإذا كانت أغلب المجتمعات السائدة في العالم اليوم، ديمقراطية كانت أم اشتراكية أم رأسمالية أو غيرها، هي مجتمعات أبوية بطيركية، فإن المجتمع العربي هو أكثر أبوية من غيره من المجتمعات، لأنه مجتمع تقليدي ماضي راكم ويفتقد إلى القوة الداخلية التي تحركه. وعلى الصعيد الاجتماعي يهيمن النظام الأبوي على العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية التي تغلب عليها الانتماءات القبلية والطائفية والمحلية، لأن المجتمع الأبوي هو نوع من المجتمعات التقليدية التي تسودها أنماط من القيم والسلوك وأشكال متميزة من التنظيم. وهو يشكل لذلك، كما قلنا، بنية نوعية متميزة تتخذ أشكالاً مختلفة من بينها بنية المجتمع الأبوي العربي، الذي هو أكثر ذكورية من غيره من المجتمعات وأشد تقليدية وأكثر محاصرة لشخصية الفرد وثقافته وترسيخاً لقيمه واعرافه الاجتماعية التقليدية وتهميشاً للمرأة واستلاباً لشخصيتها، لأنه ذو طابع نوعي وخصوصية وامتداد تاريخي يرتبط بالبيئة الرعوية الصحراوية والقيم والعصبية القبلية التغالبية. فمن المعروف أن العالم العربي هو أعظم موطن للبداءة مثلما هو أكثر مناطق العالم تأثراً ومعاناة في الصراع بين قيم البداءة وقيم الحضارة، كما أشار إلى ذلك علي الوردي في كتابه "طبيعة المجتمع العراقي"، ذلك الصراع الذي ما يزال يؤثر في بنية الثقافة والشخصية العربية.

النظام الأمومي

يمثل النظام الأمومي مرحلة سحيقة في الزمن سادت فيها سلطة المرأة/الأم في المجتمع واحتكرت القيادة الاقتصادية والسياسية وكذلك السلطة الدينية. وهو ما يقابل النظام الأبوي الذي حل محل سلطة الأم فيما بعد.

وبالرغم من أن المرأة من الناحية الفسيولوجية هي أضعف من الرجل إلا أنها كانت قد احتلت مكانة اجتماعية عالية في العائلة والمجتمع والسلطة وأن تتبوء مكانة روحية عالية في مرحلة تاريخية قديمة سادت فيها علاقات جنسية متحررة تم فيها الانتساب إلى خط الأم، أي انتساب



أوراق سوسيولوجية

الأولاد الى امهاتهم وذلك لعدم امكانية معرفة الأب الحقيقي للأولاد. وقد أطلق الانثروبولوجيون على هذا النظام مصطلح النظام الأمومي Matriarchat ، أي سلطة المرأة في المجتمع. وكان الاطفال في تلك المرحلة ينتسبون الى امهاتهم وليس الى ابائهم ، لأنه لم يكن بالمستطاع حينذاك تحديد الاب لعدم وجود نظام قرابي يحدد العلاقات الجنسية ، ولهذا ايضا تمتعت النساء ، بوصفهن الوالدات الوحيدات المعروفات بكل ثقة وتأكيد للاطفال ، بقدر كبير من الاحترام واكتسبت المرأة بذلك مكانة اجتماعية ودينية عالية. اكتسبت المرأة مكانتها الاجتماعية والدينية العالية في بدايات استقرار الانسان واستمدت مكانتها العالية من الطبيعة، لأن المرأة هي أول من أستقر في الأرض واكتشفت الزراعة ودجن الحيوانات ، ولان مبدأ الخصوبة في الارض هو نفسه مبدأ الخصوبة عند المرأة . وهكذا تطورت سلطة المرأة في المجتمع التي هي في الحقيقة حق طبيعي لها. وبسبب اكتساب المرأة أهمية روحية، نتج الدين، واجب العطاء عند الولادة. ولذلك قدس الانسان الأرض مثلما قدس الأنثى ، فالأنثى هي صورة وخليفة للأم الأصل-الأرض . فلم تقلد الارض الأنثى ، بل قلدت الأنثى الارض واصبحت مقدسة مثلها واصبح الاحترام الديني والتقدير لها الاساس في سلطتها وارتفاع مكانتها الدينية والاجتماعية وسياستها للدولة وادارتها للطقوس الدينية .

والأنثى هي الأصل ، لانها تتقدم على الرجل بعطائها ولان الرجل هو نتيجة ذلك العطاء. فالابن هو زوج المستقبل الذي يخصب بدوره المرأة ويصبح أبا . كما ان التنظيم القرابي يجد مكانه في احضان المرأة وعنه تطورت جميع التنظيمات الاجتماعية الاخرى. وبهذا يصبح حق الأم هو حق طبيعي لها .

التحول الى سلطة الرجل

ان سلطة المرأة لم تدم طويلا بعد ان سيطر حق الدولة على حقها الطبيعي وذلك بعد تطور دولة المدينة الذي اوجد اول تنظيم اجتماعي جديد للحياة الجنسية والذي اخذ شكل منظومة



الزواج وتطور فيما بعد الى شكل الزواج الاحادي وارتبط بنظام ديني كان قد حدد العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء وتطور مرحلة اخرى هي مرحلة سلطة الرجل والانتساب في خط الاب بدل الانتساب في خط الأم وتحول العلاقات الجنسية التي تنظم الزراعة والزواج والقربا. وفي هذه المرحلة تم انتقال النظام الديني من عبادة القمر الى عبادة الشمس.

كانت بدايات تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة هي بدايات قيام الدولة التي أعطت السلطة بيد الرجل واجبرت المرأة على ان تفقد حقها الطبيعي بالتدريج عن طريق اكتشاف المعادن وتطور نظام الملكية وانتشار الزراعة المنظمة ونشوء المدن وبدأت على انقاض ذلك النظام بدايات مرحلة حضارية جديدة في تاريخ تطور المجتمعات البشرية هي مرحلة " سلطة الأب "، وبذلك فقدت المرأة الأم عصرها الذهبي التي ارتفعت فيها مكانتها الاجتماعية والدينية من خلال سحر الامومة ووظيفتها البيولوجية.

ان مرحلة حق الأب " هي مرحلة "الحق الميتافيزيقي" كما يطلق عليها باخوفن التي تمثلت في انحسار حق الأم، وهو الحق الطبيعي لها ، الذي ظهر مع سيادة النظام الابوي/ البطريركي في اعلى اشكاله في الدولة الرومانية وقبلها في الدولة البابلية والذي مازال قائماً حتى اليوم في اغلب المجتمعات في العالم. (إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي واشكاله الجنسية عند العرب، بيروت 2003)

جذور النظام الأبوي العربي

تمتد جذور النظام الابوي العربي الى مرحلة ما قبل الإسلام حيث سيطر نظام "المشيخة" على المجتمع العربي الذي هو نتاج علاقات اجتماعية/ اقتصادية خاصة بنمط الإنتاج الرعوي في الصحراء العربية القائم على العصبية القبلية التي تستند على نظام القربا وصلة الدم وحيث يتماهى الفرد مع القبيلة التي تبادله الولاء وتحميه باعتبارها مسؤولة على صعيد اجتماعي وسياسي عن كل فرد من افراد القبيلة، وهو ما يؤدي الى تعزيز النظام القبلي القائم على العصبية القبلية الذي يجعل من العائلة حجر الزاوية في البنية الاجتماعية التي تتوسع دائرتها



أوراق سوسيولوجية

لتشمل العشيرة فالقبيلة باعتبارها عائلة موسعة تبسط سيطرتها على الجميع وتعزز كيانها بسيطرة مزدوجة: سيطرة الأب على العائلة والرجل على المرأة والشيخ على القبيلة ويصبح الخطاب المهيمن هو خطاب الأب وأمره وقراراته.

تمتد جذور النظام الأبوي العربي الى النظام القبلي الذي يقوم على صلة الدم والقربى والعصبية القبلية، وتكون من شروط تاريخية وجغرافية وثقافية وذلك عن طريق سيطرة الثقافة البدوية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عن طريق نظام القبيلة (المشيخة) الذي كان بديلا للدولة وادارتها كتنظيم اجتماعي يقوم على القيم والعصبيات والعلاقات العشائرية التغالبية.

وبالرغم من ان الاسلام حاول تغيير البنية القبلية وجاء بمفهوم "الأمة" بديلا لمفهوم العصبية القبلية، إلا ان النظام القبلي بقي مهيمنا على المجتمع والدولة حيث استمرت القيم والتقاليد في تأثيرها على العلاقات الاجتماعية. كما استمرت الصحراء العربية برفد القرى والأرياف بموجات بدوية مستمرة خضع لها سكان الأرياف والمدن وتأثروا بقيمتها وأعرافها وعصبيتها وذلك بسبب ضعف الدولة المركزية، بعد سقوط الدولة العربية الاسلامية وعاصمتها بغداد على يد هولاكو عام 1256 مما سبب هيمنة النظام القبلي والمحلي على المجتمع وبصورة خاصة على بنية العائلة الممتدة في علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية واستمرت حتى العصر الحديث بشكل أو بآخر، بالرغم من دخول كثير من عناصر التحديث اليه، لان الدولة الحديثة ما زالت لم تكتمل وتتضح، وكذلك مفهوم الوطن والمواطنة والهوية، التي ما زالت مفاهيم هلامية أولا، ولان تركيب بنية العائلة العربية في شكلها الأولي لا يختلف كثيرا عن تركيب بنية القبيلة العربية لعصر ما قبل الاسلام إلا في بعض مظاهرها الخارجية التي تأثرت بالتحديث، وليس في سلوكها ومضامينها وقيمها وذهنيتها ثانيا. كما ان النظام الأبوي هو بنية سيكولوجية ناتجة عن شروط تاريخية وحضارية نوعية تكونت من مجموعة من القيم والأعراف وأنماط من السلوك التي ترتبط



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أوراق سوسيولوجية

بنظام اقتصادي تقليدي له خصوصية وبواقع اجتماعي حي، وليس مجرد خاصية من خواص نمط انتاج معين بالعالم العربي.

العصبية القبلية

ومن أهم خصائص النظام الأبوي العربي التقليدي انه يقوم على العصبية القبلية وتماهي الفرد مع القبيلة التي تبادله الولاء بوصفها مسؤولة عن حمايته على الصعيد الاجتماعي والسياسي وهو ما يؤدي الى تعزيز النظام القبلي القائم على العصبية، الذي يجعل من العائلة حجر الزاوية في البنية الاجتماعية كما تفترض ان بنية القبيلة هي "كل" لا يمكن تجزئته باعتبارها عائلة موسعة أو عشيرة أو مجموعة من العشائر التي تكون القبيلة، التي تعزز كيانها بسيطرة مزدوجة : سيطرة الأب على العائلة وسيطرة الرجل على المرأة والولد على البنت، بحيث يبقى الخطاب المهيمن هو خطاب الأب الذكر وأوامره وقراراته.

وقد اتخذت "الأبوة" صفتها من صلة القربى والدم وضرورة احترام الابن لأبيه والقيام على خدمته. ولا زالت تقاليد تقديم الابن فروض الطاعة لأبيه واحترامه مستمرة حتى اليوم. كما ان احترام الابن لأبيه هو الاحترام نفسه لعشيرته مركزاً في شخص واحد يمثلها هو شيخها. وفي الحقيقة فان سلطة الأب ما هي إلا مظهراً فردياً لسلطة القبيلة. ورغم مرور مئات السنين بقي المجتمع العربي مجتمعاً قبلياً يتكون من وحدات اجتماعية أساسها القرابة التي تتمثل بالعائلة، التي هي جزء من الحمولة فالفخذ فالعشيرة فالقبيلة فاتحاد القبائل الذي يشكل المجتمع بأوسع صورته.

وتتكون الأسرة العربية من عدة عوائل عموماً، وهي أسرة ممتدة كبيرة الحجم التي تشكل السمة الأساسية لبنية العائلة العربية حتى منتصف القرن الماضي وتضم كل المتحدرين من جد ذكر واحد وينصهرون في وحدة واحدة ويحمل جميع أفرادها اسم الجد الأول للأسرة.

وفي الأرياف العربية ترتبط بنية العائلة ارتباطاً وثيقاً بأسلوب الانتاج الاقتصادي السائد والعلاقات الاجتماعية التي تشكل الأرض والزراعة ركيزتها الأولى والأساسية، وتعكس بشكل



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net

أوراق سوسيولوجية

واضح بنية النظام القرابي الذي يقوم على التضامن والتماسك والتعصب العائلي في مواجهة المشاكل والأعباء والصراعات مع العوائل الأخرى ومع الحكومات وغيرها. ولذلك تحتاج العائلة الى تكثير النسل لرفد الأرض بأيدي عاملة ذكورية كثيرة والزواج المبكر ومن داخل العائلة (ابن العم وابنة العم) وكذلك تعدد الزوجات التي تفرضها وحدة العمل في الارض. وهكذا بقيت العائلة العربية الممتدة حتى وقت قصير تشكل وحدة اجتماعية انتاجية بفعل استمرار الظروف والشروط البنيوية لتطورها حتى نهاية القرن التاسع عشر.

ويلاحظ المرء بقاء مظاهر سلوكية ما تزال تفعل فعلها في اعادة انتاج العلاقات القرابية، التي تظهر في الميل الى التقارب السكني في منطقة واحدة او مدينة واحدة وتوثيق علاقات القرابة بحضور المناسبات العائلية المختلفة وبخاصة في مناسبات الزواج والاعياد والوفيات وغيرها. وما زال الزواج الداخلي يشكل النموذج المفضل لدى كثير من العوائل العربية الممتدة. كما يمتد النظام الأبوي- البطريركي العربي الى تشكيلات السلطة التي ما زالت تعتمد على النفوذ العائلي، وما زالت التكتلات العائلية والعشائرية تلعب دورا هاما وبارزا في كثير من القرى والأرياف وحتى في كثير من المدن العربية.

النظام الأبوي والمرأة

يقوم حجر الأساس في النظام الأبوي على هيمنة الذكر على الأنثى واستعباد المرأة واضطهادها ونفي وجودها الاجتماعي وذلك لأنه مجتمع أبوي يسيطر فيه الرجل على المرأة لأنها أقل درجة منه ويكوّن ذهنية ذكورية ذات نزعة تسلطية ترفض النقد والحوار وتعاقب كل من يخرج على هذا النظام الأبوي البطريركي.

فمنذ فجر الحضارات العليا الاولى في التاريخ كانت المرأة ضحية المجتمع الأبوي

/البطريركي- الذكوري الذي قنن قيما واعرافا وتقاليدا جعلت المرأة أدنى من الرجل درجة، وهو ما جعلها مضطهدة، ومن يضطهدها هو الرجل، مع ان الحياة لا تكتمل إلا بهما. ويأخذ الاضطهاد اشكالا ثلاثة وهي :



اولا - الاضطهاد النوعي الذي يقوم على تفوق الرجل على المرأة وهيمنته عليها من اجل تحقيق مصالحه الخاصة والعامة التي ادت الى طمس شخصية المرأة والتقليل من أهميتها ودورها الاجتماعي واستلاب شخصيتها في الاخير، مما سبب عدم التكامل والتكافل الاجتماعي بين الجنسين.

ثانيا - الاضطهاد الابوي-الذكوري، الذي يظهر في هيمنة الرجل على الانثى في العائلة والمجتمع والسلطة. ويتم التعبير عن هذه الهيمنة وهذا الاضطهاد بتسلط الذكر على الانثى والأب على الأم والأولاد، تسلطا لا عقلانيا يوجب خضوعهم وطاعتهم له طاعة عمياء، مثلما يسيطر الولد على البنت حتى لو كانت اكبر منه سنا وأرزن منه عقلا.

ثالثا - الاضطهاد القانوني الذي ينبثق من الاضطهاد الأبوي والذي ينعكس في القوانين الوضعية والعرفية التي تضطهد بدورها المرأة في حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو ما يعيق تقدمها ومساواتها مع الرجل في الانسانية.

والواقع لم يكن اضطهاد المرأة واستلابها بسبب العامل البيولوجي او الديني او النفسي، وانما بسبب العوامل الاجتماعية والطبقية والقيم الذكورية التي نتجت عن مصالح الرجل في الهيمنة عليها والاستحواذ بها واخضاعها لمشيئته، وهو اساس عدم المساواة بين الجنسين والصراع الأزلي بينهما.

النظام الأبوي والتسلط السياسي

ليس من النادر ان نجد افراد قبيلة واحدة او طائفة واحدة او مدينة واحدة او منطقة واحدة يسيطرون على السلطة والدولة والنفوذ ويتحكمون في رقاب الناس، كما في اغلب الدول العربية. وهذا دليل على ان السلطة الأبوية ترتكز على العائلة الممتدة، التي هي النمط القرابي السائد، الذي يمتد الى النظام السياسي الحديث ويستمد شرعيته من كونه نظاما قريبا أبويا يطرح الحاكم نفسه فيه على انه " الراعي " و"الأب القائد" وان جميع أفراد الشعب هم أبناءه، وهو يخاطب رعاياه بـ "أولادي" وعليهم جميعا واجب تقديم الولاء والطاعة والخضوع له دوما، وفي ذات الوقت



أوراق سوسيولوجية

ينتظر "الأب القائد" من أبنائه الولاء المطلق له. وهو بهذا يجسد النظام الأبوي-الذكوري المسيطر على المجتمع العربي. والأب الحاكم في الحقيقة هو المستفيد الأول من هذه "الأبوة" التي تساعده على السيطرة على رعيته واخضاعها لمشيئته واستبداده.

وتدعم النزعة الأبوية من جهة أخرى فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة التي تساعد على الخضوع للنظام الاجتماعي والسياسي، مثلما تساعد على تغييب مفهوم المواطن الفرد واستقلاله الفردي عن الجماعة وكذلك تغييب خصوصيته وتذويب شخصيته في الجماعة. وكلما يفقد المرء فرديته واستقلالته، كلما يشعر بعدم أهميته وضعف مسؤوليته، لأن المسؤولية الجماعية تقع على عاتق العائلة والعشيرة والتي تغطي على كل مسؤولية فردية.

ان الشخصية، التي تهتم بالوسائل أكثر من الغايات، ترسخ هيمنة "الراعي" وتمنع الأفراد من اقامة أي تعاقد اجتماعي بينهم والتسليم بما هو موجود بحيث تصبح عاجزة ومشلولة ولا تستطيع الرفض وقول "لا". وتقف جميع المؤسسات التقليدية خلف هذا العجز وتدعمه وترسخه.

والحقيقة فان الحضارة الحديثة تقوم على عقد اجتماعي وعلى مفهوم التخصص وتقسيم العمل الاجتماعي بين الافراد حيث يوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وهو ما يتعارض مع قيم العائلة والعشيرة والقرباة والطائفة والجيرة وما يشبه ذلك، التي لا تضع للفرد من أهمية سوى كونه واحد من الجماعة، بعكس الحضارة الحديثة التي تعطي للشخص مكانه المناسب حسب امكانياته وكفاءته ومقدراته. وهذه الحوافز هي التي مكنت المجتمعات المتقدمة من التطور والرقى الحضاري.

ان العلاقة التي تتحكم بين الرئيس والمرؤوس، في العائلة والقبيلة والطائفة والمجتمع والدولة، هي شكل من السيطرة الأبوية الهرمية التي تقرر ثنائية من التسلط والخضوع، ليس بين الفرد والعائلة فحسب، بل بين الحاكم والمحكوم، حيث ما زال الحاكم العربي يستبد برأية. فهو الخليفة والوالي والأمير والشيخ والرئيس والأب القائد، الذي يصدر الأوامر والنواهي وعلى الرعية والسكان والشعب ان يخضع لأوامره ونواهي ويقول دوما: سمعا وطاعة!



أوراق سوسيولوجية

هذه العلاقة غير المتكافئة بين الرئيس والمرؤوس لا بد وان تولّد صراعاً اجتماعياً من شأنه تضخيم الذكورة وتبخيس الأنوثة وتجعل من الولد الأكبر (البكر) رجلاً متسلطاً حتى على اخته التي تكبره سناً وثقافة. وهي علاقة تسلطية هرمية تنمو في ظل تربية أخلاقية صارمة تعلم الافراد الطاعة العمياء، حيث يمثل الأب القوة والسلطة والأم الطاعة والخضوع. وحينما ينمو الولد يقوم بتقليد أبوه واخذ دوره التسلطي وتقوم البنات بتقليد أمها وأخذ دورها في الخضوع والانصياع. وينتقل التسلط والخضوع من العائلة الى المدرسة والشارع والوظيفة والمصنع والمؤسسات الأمنية والعسكرية وحتى الى أعلى قمة في هرم السلطة. وهي علاقة استبدادية تسلطية قد تؤدي الى استجابات متعارضة، فهي أما أن تؤدي الى الخضوع الزائد عن اللزوم للمتسلط، أو النبذ التام لسلطته والتمرد عليه. كما ان هذه العلاقة التسلطية تلغي الحرية مثلما تلغي الحوار والتفاهم في الأسرة وفي المجتمع وكذلك في السلطة، أي تلغي السياسة، من حيث هي فعل حوارى بين أفراد مستقلين يتخطى العائلة الى السلطات الحاكمة التي هي أساسا سلطات عائلية أيضاً، تهتم بمصالح العائلة لا بمصالح الشعب والوطن. وهكذا ينتقل الاستبداد والتسلط من العائلة الأبوية الى السلطة الحاكمة.

كما تقوي العلاقة التسلطية التنظيم البيروقراطي، الذي يقوم على القمع والطاعة والخضوع ويحول الأفراد الى مجرد آلات بحيث تمسح شخصياتهم وتغتصب حقوقهم وتمتلخ انسانياتهم. وبهذا المعنى فإن هذا النوع من الاستبداد لا يعني بلوغ الرشد، وانما اللارشد، الذي لا يحرر الانسان، وإنما يقيد بسلاسل من الجهل والخوف والخضوع، بحيث يفقد المرء الثقة بنفسه والاحترام المتبادل مع الآخر وكذلك مع المجتمع. وهكذا يكشف النظام الأبوي الذكوري عن وجهه الاستبدادي القمعي وترسيخه لقوة الموروث التقليدي.

ويرتبط بالنزعة الابوية الاستبدادية عوائق وتحديات واجهت المسألة السياسية التي ما زالت مطروحة حتى الان، حيث بقيت الحرية وأزمة الدولة والسلطة دونما حل لتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبقيت مجرد أمنية بعيدة عن التحقيق منذ استقلال الدول العربية والسعي



أوراق سوسيولوجية

لتحقيق الدولة القومية ذات المضمون الاجتماعي- السياسي وتأسيس قواعد قانونية ثابتة تقوم اساسا على الفصل بين السلطات والعدالة والمساواة امام القانون وتحقيق المواطنة الحرة، ومازال العالم العربي يشهد تغيبا شبه كامل لمثل هذه القواعد القانونية والدستورية، بل وانحسارا كبيرا في شرعية السلطة والتفرد بها وبصنع القرار، مما يفسح المجال الى اعادة انتاج، بل وترسيخ ما قبل الدولة القومية بمكوناتها الاثنية والقبلية والطائفية وتحول الولاء اليها على حساب الوطن والدولة والهوية.

ان من نتائج "الدولة الأبوية" الاستبدادية والتخلف وقمع الحريات هذه الردة الحضارية التي يعيشها العالم العربي اليوم، التي انتجت دول تتسلط بالقوة والبطش على جميع مؤسسات الدولة والمجتمع بإيديولوجيتها الشمولية وتحتكر السلطة للهيمنة على المنظومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وكذلك القوى الاجتماعية باسم الامة والشعب والقانون وكذلك تماهي الرؤساء الى رموز تأليهية تعلقو على المراقبة والمحاسبة، مستخدمة جميع ادوات القوة والقهر لاختضاع الافراد واجبارهم على الطاعة والخضوع .

وتشكل العائلة في المجتمعات الابوية -البيروقراطية ، كما في المجتمعات العربية عموما، بنية أبوية- ذكورية تعمل على بناء شخصية تابعة تميل الى الخضوع للكبار والاذعان للعائلة وكذلك للسلطة عبر تربية أبوية صارمة تعلم الافراد التلقين والخضوع والطاعة العمياء. وحينما ينشأ الاولاد، يقوم الولد بتقليد الأب ومحاكاته واخذ دوره في التسلط على اخته أولا ثم على عائلته بعد الزواج ثانيا. وتقوم البنت بتقليد الأم واخذ دورها التابع والانصياع الى أوامر الذكر ونواهيها. وينتقل التسلط من العائلة الى العشيرة ومنها الى المدرسة والشارع والدوائر والمصانع والى جميع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية.

ان الخضوع وعدم مخالفة الأوامر تجعل الفرد ينفذ تلك الاوامر بدون أي تفكير او رفض أو احتجاج. وبذلك يكون الطفل المطيع " ولدا طيبا يسمع الكلام دائما". ولكن عندما يكبر الولد



أوراق سوسيولوجية

المطيع ويتكيف مع ضرورات المواقف تحدث عنده ردود افعال متناقضة ويبدأ بتطوير عدوانية مكثفة ضد الأب وضد المعلم وكذلك ضد الموظف والشرطي وغيرهم، كما يضطر، بسبب الخوف والاحترام الزائد للقيم والاعراف، الى كبت هذه العدوانية، التي من الخطر عليه اظهارها، غير انها تتحول بالتدرج الى عامل ديناميكي في بناء شخصيته وتكون لديه قلقا واضطرابا وتدفعه الى ان يخضع الى أكثر من جهة، وفي ذات الوقت، تخلق له تحديات وردود أفعال عدوانية احيانا موجهة الى الاخرين والى الحياة نفسها بصورة عامة. كما ان ردود الافعال هذه تؤثر سلبا على شخصيته وتطور بمرور الزمن سمات جديدة وتصبح جزءاً من شخصيته. ومن المعروف ان السلطة الاستبدادية غالبا ما تبحث عن الانسان الضعيف الخاضع وتحاول تطويع عقله ضمانا لتطويع جسده وتستخدم لذلك آليات مختلفة من بينها قتل البعد العقلاني النقدي وتحريفه وتطوير مسلمات تبريرية، كنظرية المؤامرة والاعداء الجدد وغيرها لخلق مسوغات تساعد على فرض قيود ومحرمات وعوائق تقيد الفكر وتصب عادات وانظمة جديدة في قوالب جاهزة في البنية الذهنية تقف سدا منيعا امام أي مقاومة تبديها الفئات الاجتماعية المقهورة، التي تقضي بمرور الوقت الى تطويع الجسد واخضاع العقل واضعاف الاحساس بالمسؤولية، التي تسهل عملية الخضوع.

ان الانسان الضعيف والعاجز امام القوة الابوية المتسلطة التي يفرضها الحاكم او الشرطي او الشيخ او المعلم او الموظف الذي يمتلك صنع القرار إذا لم يستطع التملص من التسلط فليس امامه سوى الرضوخ وبذلك يفقد السيطرة على مصيره ومستقبله. وبدلا من المقاومة والرفض يقوم بسلوكيات تعويضية كالتزلف والاستسلام والمبالغة في احترام المتسلط وتبجيله، اتقاء لشره من جهة، والطمع في رضاه من جهة ثانية، والأمل في العيش بسلام لانه لا يستطيع الرفض والتمرد والمجابهة من جهة ثالثة. وفي هذه الحالة تنعدم علاقة التكافؤ لتحل محلها علاقة التشيؤ، وذلك لعدم وجود اعتراف بالأنا كقيمة انسانية. وهكذا تتطور علاقة جديدة ومن



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK

www.iraqieconomists.net

أوراق سوسيولوجية

نوع آخر حيث يصبح "الآخر هو الجحيم". وكلما تتضخم ذات المتسلط تفقد ذات العاجز أهميتها واعتبارها وفعاليتها حتى لتكاد تفقد انسانيته مثلما تفقد الاحساس بمعاناة الاخرين والتعاطف معهم وكذلك تزداد المخاوف من الاخر والحاجة الى الامن والطمأنينة ويصبح الانسان نهبا للقلق واللامبالاة، بحيث ينطبق عليه قول المتنبي :
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح ميت ايلام.

(* باحث وكاتب اكاديمي سوسيولوجي

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بأعادة النشر بشرط الاشارة الى

المصدر. 23 تموز 2016

<http://iraqieconomists.net/ar/>